المجلد السادس عشر ١٨٦، ١٨٥ الجزء الخامس والسادس

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م
تنشر في دمشق مرة في الشهر

أيار و حزيران سنة ١٩٤١ م
جمادى الأولى و جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق
المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
الدفع مقدماً { وفي جميع الأقطار ٤٠٠ 〃 〃

مطبعة الترقي بدمشق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المطبوعات العربية

البدء بالطبع وعبث الطابعين

سبقت مصر سائر الأقطار العربية في الأخذ بأسباب الحياة العلمية ومنها طبع الكتب . ولئن بدأت الاستانة بطبع الحروف (١١٣٩ هـ) بعد أن طبعت الكتب العربية في الغرب بزمن طويل ، إن الطبع بالحروف لم يعهد في مصر الا في سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وكان على ضعف حتى سنة ١٨٢٢ م وهي السنة التي أسست فيها مطبعة بولاق الأميرية وطبعت الأمهات القديمة وكتب العلوم الحديثة .

وأنشئت في بيروت مطبعة المرسلين الاميركان البرنستانت سنة ١٨٣٤ م ثم مطبعة المرسلين اليسوعيين الكاثوليك في سنة ١٨٤٨ م ، وفي نحو ذلك الزمن دخلت الطباعة بالحروف الى تونس ، وانشأت الحكومات مطابع لها في بعض أنحاء الشرق . وما بدأ الأفراد بتأسيس المطابع في أرض الشرق العربي الا بعد انقضاء زمن على المطابع الحكومية ، وكانت عنايتهم بما يطبعون دون عناية الحكومات ، ذلك لأن القائمين بأمرها توخوا الربح قبل كل شيء ، وتوهموا الأرباح تأتي من طريق الاقتصاد في النفقة من كل باب ، وكان معظم من عانوا الطباعة لا شأن لهم في العلم والأدب ، فأساء بعضهم الطبع بالطبع ، وأخذت الشناعة ببعض ما طبعوا : لا دقة في التصحيح ، ولا ذوق في وضع الصفحات والحواشي ، وقد يخلطون في الكتاب كتاباً آخر لا علاقة له بالكتاب الأصلي ، فتستغرق الصفحات بالأصول والزوائد ، ويختارون للطبع أسقم الحروف ويتخيرون أدنى الورق ، ويتطلبون الرخص في كل شيء ، وبذلك خلت مطبوعاتهم من كل بهجة وروعة .

ولما كان اكثر من عانوا طبع الكتب من طبقة العامة ، لم يهتموا لجهلهم بغير كتب الخرافات والغراميات على الأغلب ، بدعوى أنها اروج من كتب

العلم ، ظانين أن طبع الكتب من جملة ضروب التجارات لا تحتاج الا لما تحتاجه التجارة عامة من رأس مال ، ومعرفة بطرق التوفير ، واقتناص الربح ، والتجارة تخوّلهم أن يطبعوا ما شاؤوا ، ويعملوا بالكتب ما شاؤوا ، على أن تكون الغاية من كل ذلك الكسب المضمون ، لذلك ما تعفف بعض الوراقين عن طبع كتب المنامات والتخريفات وأشياء سموا كتبها الروحانيات ، واشياء هي من الاسرائيليات ، وكتب أسرار الحرف ، والجفر ، وكتب الكيمياء وعمل الذهب ، وكتب السخف والمجون ، وطبعوا واكثروا من طبع كتب ابي معشر والديربي واضرابهما ، وكل الكتب المنسوبة لأمثالها تعبث بالعقول وتزيد قارئها جهلاً الى جهل

طبع كتب العلم

قويت العزيمة على الاستكثار من طبع كتب العلم لما كثر تبرّم الناس بتلك الكتب المضرّة وزاد عدد المتعلمين على الطرق الحديثة ، فأدرك العارفون قصورهم عن احياء كتب السلف ، فطبعوا في مصر أسفار مالك والشافعي وابن حنبل وابي حنيفة والغزالي وابن حزم وابن تيميـة وابن القيم وابن الجوزي وابن قتيبة والجاحظ وثابت بن قرة وحنين بن اسحق والآمدي والشاطبي والقرافي وابن رشد والباقلاني وابن عبد البر والسرخسي واخوان الصفا وابن جني وابن منظور وابن سيده الى عشرات امثالهم من علماء الأمة وحكمائها وأدبائها ومؤرخيها ولغوييها .

واختصت الهند بطبع كتب الحديث ورجاله وما شاكل ذلك من علم الكلام واللغة ، كما تفردت ايران بطبع كتب الامامية بالعربية وغيرها ، وزنجبار بطبع كتب الخوارج والإباضية ، ودمشق وبيروت بطبع الكتب المنوعة ، وخصت أوربا بطبع كتب العلوم كالطب والكيمياء والأقرباذين وجرّ الأثقـال والزيجات والأرصاد والفلك والرياضيات والطبيعيات والنبات والتاريخ والجغرافيـا والرحلات واللغة والأدب والشرع وغير ذلك من العلوم التي نقلتها العرب عن أهل الحضارات

القديمة وزادت فيها ، او كانت وقفاً عليهم كعلوم القرآن والسنة واللغة والشعر .

شرعت أوربا من نحو أربعة قرون بطبع ما عثرت عليه من كتب الرازي والبيروني والبتاني والكندي (الفيلسوف والمؤرخ) وحنين بن اسحق والخوارزمي ونصير الدين الطوسي وعبد الرحمن الصوفي وابن النديم والفارابي وابن سينا ويوحنا ابن ماسويه والطبري واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلكان وابن الاثير وأبي الفدا والقزويني وحمزة الأصفهاني والشريف الادريسي والمقدسي والاصطخري وابن حوقل وابن خرداذبة والهمداني والبلاذري والبكري وابن عذاري وابن سعد وابن سعيد ومسكويه وابن جبير وابن هشام والبيضاوي وعشرات من اضرابهم مما لا يقل عن خمسمائة مجلد ، وكلها كتب مختارة بذلوا الوسع لمعارضتها على نسخ متعددة ووشحوها باختلاف الروايات وحلّ عويص مشكلاتها ، وزينوها بالفهارس ، وقربوا منال الانتفاع بها على المطالعين ، عملوا كل ذلك بأمانة وتدقيق وتحقيق ، وكانت الغاية من طبعها واحيائها خدمة العلم ، وما قصر الهولانديون والألمان والطليان والفرنسيون والبريطانيون والروسيون والاسبانيون والبولونيون والاميركان وغيرهم في احياء كتب العلوم وطبع كتب اللغة والتفسير والحديث أيضاً

طلع القرن الرابع عشر من الهجرة ، وأهم مواطن طبع الكتب العربية في الشرق القاهرة وبيروت وتونس والاستانة وحيدر آباد الدكن وطهران وفاس ، وجهلة الوراقين قابضون على قياد الطبع لا يهتمون بغير الكسب ، وقلّ من الكتب ما تولى تصحيحه العارفون ، ومنها ما نشرته الحكومة المصرية وبعض الجمعيات العلمية والدينية . وكان المؤلفون في بلاء من أكثر الورّاقين يتحكمون فيهم ، ويستثمرون جهودهم ، واذا أرادوهم على عمل فهارس للكتب تسهل على المطالعين تجهموا لهم ، واذا اقترحوا عليهم أن يختاروا الجيد من أصناف الورق هزؤوا بهم .

جمعيات طبع الكتب

وهذا ما دعا الى تأليف عدة جمعيات من الغُبر على العلم ، ومن أعضائها الشيوخ الأجلاء ومنهم بعض أرباب المكانة في المجتمع المصري فلم يوفقوا في عملهم ، لما كان ينقصهم من بعد الهمة والمشاكلة في الثقافة ، والتجرد عن التعصب ما امكن في اختيار ما يطبعون ، وتألفت منذ أواخر القرن الماضي في مصر عدة جمعيات لهذا الغرض ، ومنها ما طبع بضعة كتب وانهزم من الميدان ، ومنها ما قصد طبع كتاب بعينه فلما أتمه لم يحاول طبع غيره . وقد انحلت هذه الجمعيات لأنها لم تسر على نظام ثابت يضمن لها البقاء ، ولأن القائمين بها أرادوا حلها عجزاً عن المضي فيها ، ولأن الفردية تغلب على الشرقي فلا ينجح مجتمعاً وكثيراً ما يفلح منفرداً الفلاح كله .

وأنشأ بعض النابهين من المتعلمين على الأسلوب الحديث لجنة في القاهرة في سنة ١٩١٢ سموها « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وما زالت تزيد رقياً سنة عن اخرى ، تطبع الكتب الجديدة والقديمة ، وتعنى بألاّ تخرج مطبوعاتها قبل عرضها على جماعة من الاختصاصيين من أعضاء هذه اللجنة أو من غيرهم ، وأكثرهم معلمون وأساتذة وموظفون ، وقد طبعوا الى الآن اكثر من مائة وثلاثين كتاباً في الطبيعة والرياضة والفلسفة والتاريخ والأدب والاجتماع وغيرها ومنها ما يدخل في مجلدات ، ومنها ما هو من القطع الكامل ، ومن كتبهم ما نقلوه عن اللغات الاجنبية ومنها ما ألفه الأعضاء أو غيرهم ، فأثبتت اللجنة أن الشرقي اذا أحب العمل وأتقنه لا يقل عن الغربي .

يتنافس الناس اليوم في اقتناء المطبوعات الجيدة ، وكان المأمول أن يكتب لها الرواج اكثر مما قُدّر لكتب المجون ، ومن هذه ما يطبع عشرات الألوف كالقصص والروايات ، ومنها مالا يشبع الجمهور منه لأول نشره بأقل من عشرة آلاف نسخة ، وما يقال في الكتب يقال في المجلات — والمجلات أيضاً كتب

دورية — فان أرقى المجلات العلمية الأدبية باللغة العربية تطبع بضعة الوف ، ومجلات العامة تطبع العشرين والثلاثين الفاً وربما اكثر من ذلك ، وما يروق الخاصة لا يروق العامة ، وخواص كل أمة اقل من عوامها . وكان لارتقاء فن الطباعة في الغرب دخل كبير في رقيّ المجلات العربية وما صارت اليه من التفنن في الطبع والتصوير . ولم يدخل على الكتب من هذا التحسين شيء كثير يناسب فائدة الكتب ، وتناسى السواد الأعظم ان الكتب تخلد وتورّث وتتناقلها الأيدي اكثر من المجلات والصحف ، وهذه ما خرجت عن كونها ابنة يومها بل ساعتها .

أصناف الكتب

تقسم الكتب في مصر الى قسمين صفراء وبيضاء ، فالكتب الصفراء هي ما طبع على ورق اصفر من الجنس الرديء ، وهذه يسمونها الكتب الأزهرية ، والبيضاء هي التي تطبع على ورق ابيض ، وهي كتب الجمهور على أنواعها و كتب المدارس النظامية ، والكتب الصفراء رديئة الطبع ، رديئة الوضع ، تشوش القارئ وتبغض اليه المطالعة ، بما تحمل من هوامش وهنات ينبو عنها النظر ، والعكس في الكتب البيضاء المشرقة فانه تستجاد لها الحروف والورق وهي خالية من الهوامش الا ما كان منها داخلاً في الموضوع ، وقد تبذل العناية بتصحيحها اكثر من الكتب الصفراء .

دب الكساد في الكتب الصفراء قليلاً ، وكتب الرواج مع الزمن للكتب البيضاء ، بقاعدة بقاء الأنسب ، وبما دخل من التحسين على أذواق الأمة ، وما برح مع هذا بعض الطابعين بمصر يجوزون لأنفسهم طبعها كما يطبعون كتب التضليل والتدجيل ، يصدرونها الى بلاد الزنوج في أواسط افريقية والى بلاد المالايو ، يطبعون منها مقادير برسم التصدير الى الخارج غالباً ، ولو كان لي من الأمر شيء لجرّمت كل من يجرؤ على طبع مثل هذه الأسفار المضرة بالعقل والدين ، ومضرتها لا تقل عن كتب المجون والسفاهة ، وكتب الالحاد والاباحة ، ذلك لأنها تباع على انها كتب دين ، والدين لا يعرفها وليست منه بسبيل .

مضار الكتب الساقطة

لا جرم ان من يبيع من الجهلاء كتباً تزيدهم جهلاً وغباوة كمن يحمل المخدّرات الى السذّج ويزين لهم استعمالها ، او كساقٍ يسقي السم الزّعاف لمن يطلب اليه ان يسقيه ماءً قراحاً ، وليست كتب الجهالات في تخريب العقول بأقل من تخريب المخدرات والمسكرات في الأجسام . الحكومات تخاف من كتب فيها ما لا ترضاه سياساتها ، ولا ترى واجباً عليها أيضاً أن تحظر على الطابعين طبع المضرّ من الكتب ، لئلا يحملوا الى القراء كتباً غير محررة ولا معتبرة ، فان هذه بالنسبة لجمهرة الأمة لا تقل مضارها عن تلك

ربما يقول بعضهم ان هذا مما يفتح للحكومة باب التدخل في حرية النشر وسلب حق الناس في الحرية . وما كان لأمة لا تعرف مالها وما عليها ، وما يصلحها وما يفسدها ، وليس لها من نفسها مراقب ولا محاسب ان تتمتع من الحرية بالمقياس الواسع ، وخير أن يرجع في النشر الى قاعدة من ان تطغى هذه الفوضى على ما يطبع ، وترجع الأفكار الى عصور الظلمات ، وينقطع الأمل من تأليف امة منورة متجانسة حتى بعد قرون .

مظاهر الكتب وترويجها

وبعد فقد كان في الامكان الاستعاضة عن هذه التجارة المحرمة في الكتب بتجارة محللة فيها بطبع الكتب المفيدة ، فان ما يطبع في مصر من الجيد تروّجه شهرتها في الأقطار ، وتزيد الكتب رواجاً بين مختلف الطبقات بقدر ما يتقن الطابعون طبع ما يطبعون من الكتب وينتقون أسفارهم ، ويبذلون العناية بالتصحيح والتهذيب . وقد رأينا بأخَرَة بعض الطابعين تنصرف هممهم الى الخروج عن الطريق القديمة بعض الشيء كأن يقلدوا الطابعين في ديار الغرب بعنايتهم واتقانهم ، ويجعلوا فهارس للكتب ، ويتوقوا الأغلاط المطبعية في الجملة ، فزادت بذلك كتبهم حرمةً وقبولاً .

جمال الكتاب وطبعه مما يزيد الرغبة فيه ويزينه في الأعين ، وفي العادة أن كل بضاعة تبرز في قالب مقبول صنعًا ووضعًا تحتل من النفوس أحسن موقع ، فما الحال بالكتب التي هي أكثر البضائع اعتباراً وخلوداً ، ولقد بلغ حب الاتقان من أهل الغرب ، وحب الاعلان عن كل شيء ان عهدوا الى مفننين عرفوا بسلامة الذوق وسعة الحيلة ، ليصفوا بضائعهم صفًا يلفت الأنظار ، ويعلنوا عنها في الصحف وغيرها بما يبعث العزائم على اقتنائها ، وان لم ترغب في ذلك كثيراً ، فهل عنينا نحن بكتبنا وقدرنا أنها على الأقل بضاعة من البضائع تحتاج لمن يروجها ؟ ان الكتب العربية تحتاج الى ان تأخذ حظًا من الاتقان اللازم وتهيأ لها من طرق الدعاية والنشر مثل ما يهيئه الطابعون والوراقون في البلاد المتمدنة لنشر مطبوعاتهم . ولو كانت كتبنا اسفاط جواهر مخبوءة في مستودعات الطابعين ما تنبه الناس لها بدون اعلان ولا دعاية .

بعض طرق الغربيين في نشر الكتب

في يوم واحد ينشر الورّاق الانكليزي[1] الكتاب الجديد في كل بلد تقرأ فيه اللغة الانكليزية من أصقاع الغرب والشرق ، وفي يوم واحد تكتب الصحف والمجلات نقد الكتاب وتقريظه وتلفت الأنظار اليه ، وفي يوم واحد يقرأ هذا الكتاب ابن بريطانيا العظمى وابن اليابان وابن كندا وابن استراليا وابن زيلاندة الجديدة وابن الولايات المتحدة وابن الهند ونزيل جنوبي افريقية ومصر والسودان . والوراق الانكليزي لا يضنّ لترويج كتبه بين القراء بكل مافي وسعه ، ينشرها بكل حيلة ، وكذلك سائر الوراقين من جميع الأمم الممدنة ، فعلينا أن ندرس طرائقهم ، وعلى الوراقين عندنا ألا يضنوا بخمسة أو عشرة في المئة يضمونها على نفقات

(١) ان مما قرأناه في هذا الشأن كتاباً نقل الى الفرنسية من الانكليزية في حقيقة الطبع لمؤلفه ستانلي اونون واسمه Stanley Unwin : La vérité sur l'édition و « الكتاب » لالبر سيم Albert Cim: Le livre

الطبع للاعلان عن مطبوعاتهم ، فيخدمون بذلك أنفسهم ويخدمون المؤلف ، ويخدمون المدنية والمعارف .

قصور وراقينا في النشر

وإنا لنجد الكتاب الذي يصدر في مصر لكثرة تدنيق بعض الوراقين في النفقات قد لا يصل الى البلاد العربية في أقل من سنة . يعتمد الكتبي في ترويج كتابه على الطبيعة والمصادفات اكثر من اعتماده على التذرع بذرائع النشر الكثيرة ، وربما طبع الكتاب الجيد وما عرف به من يهمهم اقتناؤه الا عرضاً وبعد سنين تمضي على نشره ، فهل يحق بعد هذا لورّاق أن يشكو من قلة الرواج ؟ والرّواج بيده ، ولو بذل القليل لربح الكثير . ولو صرفت العناية بالاعلان عن الكتب وترغيب الناس فيها وعرضها في المدن والقرى وتحبيب اقتنائها للرجال والنساء والأطفال لزاد عدد المطبوع والمبيع من كل كتاب قديم او حديث ، ولقلّ بهذا العمل عدد العاميين في البلاد العربية جمعاء ، ولا يمضي عشرون عاماً حتى تتغير تصورات الناس وأخلاقهم وآدابهم ومناهجهم في الحياة . بيد الطابع وبيد المؤلف نشر حضارة أمة فلينظر الوراقون ماذا يعملون ، ولتعمل الحكومات الواجب عليها نحو الطابعين ، ولتراقبهم لما فيه مصلحتهم ومصلحة الجماعة .

نحن في أشد الحاجة الى التجدد في مطبوعاتنا ، وان نجدد في مظاهر الطبع من حروف واشكال وصور ، وقطع ووضع وورق وتجليد ، ونجدد في المبالغة بتصحيح الكتب والتعليق القليل بما يبين غامضها ، فليس كل الناس يفهمون ما يقرؤون ، فعلينا أن نسهل عليهم فهمها ، كأن نشكل دائماً محال الإشكال من الألفاظ ولا نترك غامضاً ولا مبهماً ، ونحن إذا فعلنا هذا لا نغشّ المطالع بل نستميله الى الاكثار من المطالعة . واذا صنا كتبنا عن تلقين المبتدئين أغلاطاً تتأصل في عقولهم فتؤذيها نصون الدين والآداب والمدنية ، ولا تقل التبعة الملقاة على عواتق الطابعين عن التبعات اللاحقة بالحاكمين والمسيطرين .

نقابات طبع الكتب

نحتاج الى التجديد في طرق النشر ، ولا يتم ذلك الا بانشاء نقابة او نقابات تفكر في اقرب السبل الى الاتقان والنشر والربح ، وتصدر مجلة توزعها مجاناً على دور العلم ورجاله وطلابه ، تفيض في الكلام على ما صدر ويصدر من الكتب ، وعلى مافي القديم منها من الحسنات وغيرها فتكون خير اعلان لما طبع ويطبع ، وأصدق مرشد لمن اراد ان يقتني الاطايب من الاسفار ، ولا ينفق فيها اكثر مما تمكنه حالته من انفاقه ، ويعان عليَّ ان يكون له منها مع الزمن خزانة خاصة يستفيد منها هو وأولاده وأحفاده ·

العصر عصر الشركات ، وقد رأينا الطابعين او الوراقين الذين ضعفت رؤوس أموالهم لا يأتون شيئاً يعتدُّ به في هذه التجارة ، ورأينا المطابع الكبرى او الشركات المموّلة المنظمة في عملها تربح كثيراً وتفيد اكثر من غيرها · فاذا اجتمع الوراقون في مصر مثلاً ، وألفوا شركةً او شركات يدخل فيها فقراء الورّاقين وغيرهم تتغير أشكال الطبع وأشكال الأسفار ، وتخف شكوى المتجرين بالكتب من قلة الرواج ، وشكوى المؤلفين والمترجمين والمصححين ، وشكوى القراء من سخافة المطبوع والمنشور ، وشكوى الكتب من الكساد ، وتدخل في طور اتقان وعناية على النحو الذي نراها عليه عند أصغر أمم الحضارة لعهدنا ·

سبيل رواج الكتب

يتوهم بعض الوراقين عندنا ان الاشتطاط في الربح يوصل الى الغرض من هذه التجارة ، ونسوا ان الربح القليل من شيء كثير أعود عليهم من ربح كثير من شيء قليل ، ولو ادركوا ذلك ما توقفوا عن تغيير أساليبهم في الطبع والنشر وتقدير الربح ، ولأيقنوا أن من مصلحتهم المهاودة في الأسعار والعناية بتجويد بضاعتهم · ولكتاب يطبعه طابعه ويبيعه في مدة قصيرة أنفع له من كتاب يبيعه في المدد الطويلة

ليربح منه ما يقدّره لنفسه من الأرباح ، وهذا من أيسر قواعد التجارة التي يعرفها الأطفال في الغرب فعلى الرجال أن يتعلموها عندنا .

من جملة طرق الرواج في الكتب جودة طبعها وحسن خدمتها ، ونقصد بخدمتها المبالغة بتصحيح أصولها وتجاربها ، وحلّ المشكلات من متونها وشروحها ، فقد كان الطابعون فيما مضى يتوهمون أن كل مخطوط صحيح صالح للطبع لا يحتاج الى اكثر من ان يدفع الى المنضد لتنضيد حروفه وترتيب صفحاته ، ويجعل على الآلة الطابعة تخرجه ملازم ملازم . والكتب التي تطبع لأول مرة والتي يتكرر طبعها تدفع الى رجل أزهري اذا كان على شيء من العلم فيكون من الطبقة التي تعرف الاعراب فقط ، وليس النحو والصرف كل شيء في عالم العلم .

الفرق بين الغربيين وبيننا في الطبع

رأينا كتبًا طبعها أعاجم من الغربيين وهم علماء فخرجت صحيحة سالمة من الشوائب ، على ضعف ناشريها احياناً في القواعد وبعدهم عن حفظ الدساتير ، ورأينا اسفاراً طبعت في اتقن المطابع بعناية أقدر المصححين تفيض بالأغلاط ، مثال ذلك تاريخ ابن خلدون المطبوع في المطبعة الاميرية ، لو تصفحته لتعوذت بالله مما فيه من تحريف الأعلام ، وسقطاته كثيرة قد تكون كلمة او اسطراً او صفحات ، ولا تخلو صفحة منه من بضع غلطات شائنة تحرّف النص وتُحيل المعنى ، وظن مصححوه أن ما يعرفونه من قواعد الاعراب كافٍ في تصحيح مثل هذا الكتاب . وإلى اليوم نقع لأعظم المطابع خطراً اغلاط من هذا القبيل تحمرُّ لها الوجوه ، والواجب على من يعرف صنفًا من العلوم ألا يظن نفسه انه يحسن الاضطلاع بجميع الأصناف . ولعل احد الباحثين يضع لنا كتاباً فيه متاع وعبرة ، يلمّ فيه بأغلاط المطابع ، ويدوّن لنا ما يكتبه المصححون في اول الكتب وآخرها من مدح الطابع ومدح من طبعت في أيامه ، كأن طبع كتاب عِدلٌ لفتح قلعة او ثغر ، او اعمار بلد او قطر .

تصحيح الكتب المطبوعة مسألة المسائل في فن الكتب ، وكم من كتاب قديم

طبع على نسخة واحدة في بلادنا وزاده جهل الطابع والمصحح أغلاطاً الى اغلاطه ، وقالوا لقارئه انت وشأنك في هذا الكتاب ، ذلك لأنه قلّ ان يُعني أرباب المطابع باختيار مصححيهم ، يختارون اكثرهم من المرتزقة ، من الصنف الذي يصحح الملزمة ببضعة قروش ، ولو اعطى الطابع مصححاً يكون على شيء من العلم المئات لما كان مغبوناً ، ولهان على من يتناولون الكتاب ان يقتنوا ما أُتقن طبعه وعُني بتصحيحه ، وان يعطوا زيادة عشرة في المئة تضاف على قيمة الكتاب

كان تحريف جهلة الناسخين للكتب وتحريفها بصنع جهلة الطابعين مما أضاع على طلاب العلم اوقاتهم ليتوفروا على اصلاح ما كان واجباً على غيرهم أن يصححه ، ويتعبون وهم مئات ، وكان الأَولى ان يتعب واحد او اثنان ولا يشغل الناس بالعبث ولا تباع منهم مجموعة اغلاط . اي كتاب لأجدادنا طبعته مطبعة من مطابعنا التي نعدها راقية قبل هذا العهد الجديد ، ولم تحص عليه الأغلاط الكثيرة حتى الأمهات من كتب الشرع واللسان ؟ وأي كتاب طبع فأنفق الطابع على تصحيحه مالاً ، وهو يعتقد ان واجبه ان يعمل هكذا بكتابه ؟ ليت كل ورّاق يعرف ان ما يصرفه في تقويم الكتاب لا يعدُّ مالاً ضائعاً بل لابد منه لرواج كتابه ، والامانة تتقاضاه ذلك .

عبث الطابعين الجهلة بالكتب

ان من اعظم البلاء ان تتقدم العامة فتتولى طبع الكتب ، وما كان اجدر بالخواص ان يعمدوا وحدهم لمعاناة هذه الصناعة ويرقوها بكل ما عند من سبقهم الى الحضارة بأنواع الترقي ، ويغاروا على تجديدها كما يغار المرء على حرمانه ومقدساته . نعم ان بعض الوراقين اليوم في مصر هم من الأُميين حقيقة لا يعرفون ما يطبعون وما يطبع لهم . وما ينتظر من أُمي ان يقوم به في باب العلم ؟ ومنهم نصف أُميين وهؤلاء بلاؤهم أشد ، هم جاهلون ويدعون المعرفة . ولو كانت حكوماتنا تفكر أبداً في نهوضنا العلمي لما سمحت لرجل ان يطبع كتاباً وينشره الا اذا كان حاملاً

شهادة من المدارس الوسطى على الأقل ، فضرر الكتبي الجاهل لا يقل عن الضرر الذي يأتي على يد الصيدلي الجاهل.

ومما تألم له النفس ألا يكون عمال المطابع على شيء من المعرفة وألا يتخيروا من الشباب الدارسين . وقد شهدت اعظم المطابع الراقية في هذا الشرق القريب تختار صبياناً نصف أميين لتنضيد الحروف وعمل سائر ما يتعلق بالطبع ، ارادة الاقتصاد من أجورهم ، فيتعب بذلك المصحح كثيراً بتقويم التجارب ، ولا يخلو المطبوع مهما صحح من غلطات تبقى بعد معاودة الاصلاح مرات ؛ ولو كان المنضدون يحسنون فهم الكلام لاكتفى الطابع بتجربة واحدة.

واشهد أني أفضل ان ابتاع كتاباً عربياً طبع في الغرب من كتبنا القديمة بعشرين أو بثلاثين ضعفاً عما يباع به مثله من الكتب المطبوعة في الشرق ؛ لأني اجد في ذاك من المحسنات وكل ضروب الاستفادة والتيسير ما لا اجده في طبعاتنا ، ولا أجد في الكتاب المطبوع في ربوعنا على الأكثر الا بشاعة وركاكة ، وأغلاطاً لا تجد لها اولاً ولا آخراً . وقد اقدم بعض طابعي الكتب الصفراء في العهد الأخير على تحسين نوع الورق والحروف وجادوا بعض الشيء على المصححين فنشروا كتباً خرجوا بها بعض الشيء عن مألوف ما كانوا طبعوه وطبعه آباؤهم ، وأهم ما عملوا أنهم وسدوا النظر في الكتاب الى عالم فخرجت كتبهم عن أسلوب الكتب التجارية ، وصارت تعد في كتب العلم ، واظنهم ما خسروا بما عملوا بل نفعوا وانتفعوا ، فاذا خطوا خطوة أخرى الى الأمام وعدلوا عن صيغهم القديمة في الطبع سيحمدون ولا شك غب عنايتهم ، يبدؤون في الطباعة عهداً جديداً فيه الخير لهم وكل الخير للمدرسين والدارسين.

لجان علماء للنظر في الكتب

حبذا يوم نرى فيه كل مطبعة كبيرة تعهد الى لجنة من الخبراء والعلماء النظر

في كل ما تطبع ، وتراقب الكتاب من وضعه وتأليفه الى صف حروفه الى وضع صفحاته الى تصحيح ملازمه الى طبعها الى طيها الى جمعها وضمها كتاباً برأسه . هذا اليوم الذي تقضي به هذه اللجنة على صاحب المطبعة ان يعمل بقرارها لرواج مطبوعاته ، واختيار ما يعم الناس نفعه ، هو اليوم الذي يكون في تاريخ الطباعة بدء عهد جديد ، بل عهد حضارة ما سبق لنا نظيره منذ أخذنا نطبع الكتب ونقلد الغرب .

نعم ان طبع الكتب يحتاج الى مراقبة شديدة أهونها ألا يطبع شيء قبل أن تنظر فيه لجنة تقر نفعه ، فان المكررات من الكتب التي لدينا من نوعها الأمهات المعتبرة ، وكتب التخريف والتافهات ، وكتب المجون والغراميات وغير ذلك لا ينجينا من آفاتها الا سلطان المراقبة الشديدة في كل كتاب للقدماء والمحدثين فلا يطبع برأي طابع لا رأي له الا النفع المتوخى من الكتاب ، وغايته الوحيدة الاكتساب المرجى منه ، ولو بالقضاء على العلوم والآداب ، والاتيان على الفضائل واحياء الرذائل ، وشغل الناس بالسخف والهراء ، وما كنت أوثر التوسع في هذا الموضوع لولا أن ايراد الأمثلة ضربة لازب لتجلية المراد .

مثال من سخف الكتب المطبوعة

لو عرض طابعا كتاب « حلية الأولياء » للحافظ ابي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ على عالم بالكتب والمؤلفين قبل ان يتكلفا طبع كتاب عظيم مثل هذا يقع في عشرة مجلدات وتبلغ صفحاته اربعة آلاف صفحة — لقال لهما ان هذا الأصل الذي طبعتما عنه وقع في الغالب الى يد أحد الجهلة فأضاف الى كل ترجمة من عنده سخافات ما انزل الله بها من سلطان ، وما كانت من كلام المؤلف ، وكتابه قد شهد له الثقات بالجودة ، وهذه الاضافات تقدح في جودته لو كانت من المؤلف ، وقرأها من شهد للكتاب بالاجادة . وهاكم مثالاً من مئات الأمثلة من

هذه الزيادات التي شوهت الأصل ، وجعلت الكتاب على ما فيه من الفوائد جعبة ترهات ورقاعات .

من ذلك (ص ١٠ ج ١) وهم (اي المتصوفة) المصونون عن مرامقة حقارة الدنيا بعين الاغترار ، المبصرون صنع محبوبهم بالفكر والاعتبار (٢٨- ١) بدأنا بذكر من اشتهر من الصحابة بحال من الأحوال ، وحفظ عنه حميد الأفعال ، وعصم من الفتور والاكسال ، وفضل الله له العهود والحبال ، ولم يقطعه سآمة ولا ملال . ونحن نقول : ان هذه العبارات المفككة المرتبكة تنادي بلسان الحال والمقال ، انها من اسخف ما دونته الأجيال ، في تراجم الرجال ، وانها املاء دجال لا يخاف الله بحال .

(٣١—١) وقد قيل ان التصوف السكون الى اللهيب في الحنين الى الحبيب (كذا) (٣٣—١) ان التصوف استنفاذ الطوق ، في معاناة الشوق ، وتزجية الأمور على تصفية الصدور (٣٩— ١) وما عهد منه (سيدنا عمر) في ملازمته للتفريد ، ومحاماته على معارضة التوحيد ، وان لا ينهنهه عن مصاولتهم العدة والعديد . (٤٨— ١) وكان (عمر) عن فناء الملاذ منتهياً ، ولباقي المعاد منتفياً ، يلازم المشقات ويفارق الشهوات وقد قيل ان التصوف حمل النفس على الشدائد الذي هو اشرف الموارد (٦٢— ١) التصوف مرامقة المودود ومصارمة المحدود (٦٨— ١) التصوف اسلام الغيوب الى مقلب القلوب (٧٠—)التصوف الارتقاء في الأسباب الى المقدرات من الابواب (٧٢— ١) التصوف البروز من الحجاب الى رفع الحجاب (٨٧— ١) التصوف النزوح بالأحوال والتجفف من الاثقال (٨٩-) التصوف الوفاء والثبات والتسامح بالمال والجدات . في ترجمة مصعب بن عمير الداري (١٠٦) ورغب عن التعريف والتسويف ، وغلب عليه الحنين والتخويف وقد قيل ان التصوف طلب التأنيس في رياض التقديس (كلام لا معنى له) وأيضاً (ص ١١٠— ١) التصوف المفرق البينونة الى مقر الكينونة ! (١١٢— ١) التصوف اقامة الدنف المعذب على حفاظ الكلف المهذب ! (١١٨— ١) التصوف الوطئ على جمر الغضا الى منازل الأنس

والرضا (١٢١—١) التصوف استنشاق النسيم والاشتياق الى التسنيم ! (١٢٤—١) التصوف مشاهدة المشهود ومراعاة العهود ومحاماة الصدود ! (١٢٩) تصحيح المعاملة لتصحيح المنازلة ! (١٣٩—١) التصوف تسور السور الى التحلل بالحور ! (١٤٧) التصوف قطع العلائق ، والأخذ بالوثائق (١٥٧) التصوف التأله والتدله من غلبات التوله .

يا سيدي القارئ الكريم بربك اعذرني على نقل هذا الهراء ، ولو أردت لنقلت من هذه السخافات المضحكة المبكية مئات ، دسها الداسون في كتاب حاول مؤلفه أن يترجم لنساك الأمة فاختلط سمينه بغث ذاك العابث . وربما تساءل القارئ وكيف لم يهتد الطابعان الى ما شان الكتاب ؟ فالجواب هذا من عمل العلماء لا من عمل الطابعين ، ولو وقع الأصل لعارف ما تلكأ لحظة عن القول بما قلناه في هذه النقول ، وانت لو فتحت أي ترجمة لما رأيتها على الأغلب تخلو في مقدمتها من مثل هذا الهذيان . وبالله بعد ان عرفت درجة الحافظ ابي نعيم في العلم هل تجوز عليه أن يقول : ومنهم الذاكر الفكري ، خليد بن عبد الله العصري ، كان لمحبوبه ذاكراً ، والى مشاهدته ساهراً ، وان تقول ان هذا تصوف . ووالله لا يقول هذا الا من اختل ذهنه باجماع اطباء الامراض العقلية . الا يستحق ان يأوي الى مستشفى المجاذيب من يقول (ص ٢٥٨ ج ٢) التصوف عويل حتى الرحيل وحويل الى المقيل (٢٩٠ ج ٢) التصوف التمتع بالحضور والتبتع للخطور (١٨٣— ج ٢) التصوف الصفو للزيق والرقو للفيق !

واي هذيان اعظم من هذا الهذيان ينشر في هذا الزمان منسوباً الى رجل من رجال الحديث المشهورين . ألا يوافق العقلاء بعد ذلك على تأليف لجان علمية تنظر فيما يطبع قبل أن يضيعوا وقت الناس ويؤذوا عقول ناشئتهم واذهان القراء

ولا أحب أن اختم هذه العجالة قبل ان أشير الى كتاب آخر ارتكبت في طبعه فقط مثل هذه السخافات ، عنيت به « البداية والنهاية » لابن كثير . فقد

طبع منه حتى الآن اثنا عشر مجلداً بالقطع الكبير لا تقل عن ثلاثة آلاف صفحة وبقي منه أربع مجلدات ووقع على ما يظهر في أيدي مصحح لا يعرف التاريخ ولا يعرف الأدب ، حتى ليخيل الينا ان مصححه منضد حروف او فراش في المطبعة يرزق كل يوم خمسة قروش . هناك أسماء الأعلام محرفة تحريفاً مخجلاً حتى أنك تقرأ العَلَم على صورة في صفحة من الصفحات فاذا قطعت صفحتين أوثلاثاً تقرؤه على شكل آخر وهو هو ، وكذلك الأبيات الشعرية ، اجارك الله من تحريفها فانك اذا تلوتها تعاف الشعر وتنكر الأدب ، فان كثيراً منها لا يفهم ، وبعضها لا وزن له مطلقاً ، كأن الناظر فيه من طبقة العوام لا يحسن الوزن ولا يعرف المعنى . الا يجدر بمثل هذا الكتاب الذى يكلف طبعه المئات من الجنيهات أن يصرف على تصحيحه عشرات من الدنانير ويعهد بتصحيحه الى أناس يحسنون فن الأدب وفن التاريخ ، ولا يكتفى منهم ان يعربوا جملة صحيحة ، ويقرؤوا عدة مقاطع بلا غلط ؟ ان طبع هذا الكتاب على هذا النحو يعدُّ جناية على الأدب وتجنياً على العلم والمعارف ، وبه ثبت ان كل شيء يتبدل في العالم الا عقول اكثر الطابعين في مصر فانها جامدة لا تتحرك ولا تحاول ان تتحرك .

الأمثلة كثيرة في هذا الباب وقد مثلنا لذلك بما حضرنا من امثلة ، ويرى القارىء النقاد ان هذا الموضوع جليل في ذاته يجب أن يعانيه الدارسون والمدرسون والعالمون والمتعلمون وكل من يهتمون للحياة العلمية في الأمة العربية ، ونحن الآن اذا قصدنا الطابعين فقد نقدنا من قبلُ المؤلفين ، وكل ذلك بسائق الغيرة على اوضاعنا وحضارتنا وحباً بالتجدد وبعداً عن الجمود .

هذا وقد رأينا بعض النفوس تزهد في الكتب بعض الزهد وتستغني بعض الاستغناء عن القراءة ، ومن ارتقى عقله يستحيل عليك ان تضطره الى قراءة مثل حلية الأولياء بهذه الزيادات عليه . الناس مأخوذون بما هم محكومون له من التفنن في طرق النشر الحديثة من صحف ومجلات ومذياع ، وهذا ما يدعو الى التفكير

كثيراً في مصير الكتاب والعقبات التي ستقوم في مستقبل الأيام أمامه من أجل رواجه ، وانا ليؤسفنا ان نرى الكتب وما يطبع منها لا يزيد مقدار المطبوع منه كثيراً بالقياس الى ما وصلنا اليه من الحضارة ، فالكتب لم تَرُج الرواج المطلوب بل وقفت عند حد لم تتقدم فيه الى الأمام كثيراً ، ذلك لأن ما كان يرجى أن يزيد عدد المطبوع منها بكثرة قارئيها قد اخذته الجرائد والمجلات ولا سيما المجلات التي لا تعني كثيراً بمسائل الجد ، فكان من ذلك ان شغل جمهور كبير من محبي المطالعة بالتافهات والهزليات ، وكان آباؤهم بالأمس يصرفون كل وكدهم في اقتناء كتب الجد المخطوطة ، ويفاخر حتى العوام بما اقتنوا أو ورثوا من كتب يحتفظون بها كما يحتفظ غواة العاديات اليوم بعادياتهم ولا ينزلون عنها لغيرهم ولو افتقروا .

محمد كرد علي

من تراثنا المفقود

ما أُلف عن النساء

سمرنا ليلة عند صاحب لنا أديب ، فنفضنا الأحاديث نفضاً ، ثم ملنا الى ذكر النساء وأخبارهنّ والعرب وآرائها فيهنّ ، وكان في مجلسنا متأدب أخذ اللغة عن الأعاجم فنهج نهجهم في آرائه ، ونحا نحوهم في تفكيره ، فوَهم أن العرب والمسلمين قد استخفوا بالنساء فلم يحفلوهنّ أو يُعنوا بهنّ ، ولم يخصوهن بالتآليف أو يفردوا لهنّ التصانيف ، وأيد وهمه هذا بأقوال بعض المستشرقين .

وقد أردتُ تتبع هذا الزعم بالرد لتبيان وهنه ووهيه ، واستقرأت ما استطعتُ استقراءه من تراث الإسلام والعرب ، فإذا فيه تآليف حسان وتصانيف ملاح ؛ خصوها بالمرأة وجنسها ، وجلوا فيها عن أسرار وأخبار ، ولم يدعوا امرأً أدركوا صلته بهن الا تكلموا عليه وبحثوا فيه .

ولو أنّ هذا التراث العظيم كان قد سلم ، لرأينا من لطائفه وطرائفه كل معجب مطرب ، ولسمعنا من أخبار النساء وأحاديثهن وأسرارهن وشذوذهن كل رقيق جميل .

١ - فقد ألف عنهن في الجاهلية كتب كثيرة منها :

١ — كتاب « الموءودات »[1] لهشام بن محمد الكلبي النسابة الأخباري (٢٠٦)

٢ — كتاب « المعروفات من النساء في قريش »[2] لابن الكلبي أيضاً

٣ — كتاب « مناكح أزواج العرب »[3] له أيضاً

٤ — كتاب « المردفات من قريش »[4] لعلي بن محمد المدائني المحدّث المتكلم (٢٢٥)

---

(١) معجم الادباء ١٩/٢٨٨ — ٢٩٢ (طبعة دار المأمون) . والفهرست ص ٩٦
(٢) المصدر السابق (٣) الفهرست ص ٩٧ (٤) معجم الادباء ١٤ - ١٣٣ .

٥ — كتاب « الكلبيات »[1] له أيضاً

٦ — كتاب « بغايا قريش في الجاهلية »[2] للهيثم بن عدي الراوية الأخباري (٢٠٩)

٢ — ثم خصوا نساء النبي وأمهاته بالرضاع وبناته بعدد من الكتب لا يحصى منها:

١ — كتاب « أمهات النبي »[3] للمدائني الذي مرّ ذكره

٢ — كتاب « أمهات النبي »[4] لابن الكلبي

٣ — كتاب « أزواج النبي »[5] لمحمد بن عمر الواقدي (٢٠٧)

٤ — كتاب « بنات النبي وأزواجه »[6] لأحمد الرقي الراوية الحافظ الثقة ·

٥ — كتاب « ازواج النبي »[7] لمحمد بن عمر المعروف بابن القوطية وكان نحوياً لغوياً أديباً شاعراً (٣٦٧) ·

٦ — كتاب « أزواج النبي »[8] لابن الكلبي ·

٣ — وتكلموا على نساء المسلمين ممن أوتي الشهرة والملك، في كتب شتى منها:

١ — كتاب « أمهات السبعة من قريش »[9] لمحمد بن حبيب وكان من علماء بغداد ومهرة مؤدبيها · (٢٤٥)

٢ — كتاب « امهات الخلفاء »[10] لابن الكلبي

٣ — كتاب « من تزوّج من نساء الخلفاء »[11] للمدائني وغيرها ·

٤ — ثم ألفوا في أخبار النساء كتباً كثيرة بينوا فيها أحوالهن وطبائعن وطرق معائشهن · وأوصافهن وما يعجبن به او يعرضن عنه وما قيل فيهن أو روي عنهن منها :

(١) الفهرست ١٠٢ · ومعجم الادباء ١٤ - ١٣٤ (٢) معجم الادباء ١٩ — ٣١٠ · الفهرست ص ١٠٠ ، وانظر وفيات الأعيان ج ٢ · (٣) معجم الادباء ١٤ — ١٣٣ · (٤) الفهرست ص ٩٨ (٥) الفهرست ص ٩٩ (٦) معجم الادباء ٤ — ١٣٣ · وانظر الصفدي في الوافي ج ٢ ق ٣ ص ٣١٩ · (٧) معجم الادباء ١٨ — ٢٧٥ (٨) الفهرست ص ٩٧ · (٩) معجم الادباء ١٨/١١٤ - ١١٧ · الفهرست ص ١٠٦ · (١٠) الفهرست ص ٩٨ · (١١) الفهرست ص ١٠١ ·

١ — كتاب « النساء » [١] للجاحظ (٢٥٥)

٢ — كتاب « النساء » [٢] للهيثم بن عدي (٢٠٩)

٣ — كتاب « النساء » [٣] لحفص بن عمرو العنبري ذكره ابن النديم

٤ — كتاب «اخبار النساء»[٤] لهارون بن علي المنجم وكان أديباً شاعراً راوية نديماً

٥ — كتاب « أخبار النساء » [٥] للمدائني

٦ — كتاب « أخبار النساء » [٦] للرقي

٧ — كتاب « النساء » [٧] لابراهيم بن القاسم القيرواني ، وكان شاعراً رقيقاً (٤٠٠) قال ياقوت « إن كتابه عن النساء كبير »

٨ — كتاب « اخبار النساء »[٨] لابن حاجب النعمان ، عبد العزيز بن ابراهيم ، وكان يملك خزانة لم يُر مثلها لأنها كانت تحوي على كل كتاب عين .

٩ — كتاب « النساء والغزل » [٩] لمحمد بن خلف بن المرزبان

١٠ — كتاب « النساء والعزل » [١٠] لابن قتيبة العالم الاديب المؤرخ (٢٧٦)

١١ — كتاب « اخبار النساء » [١١] لعلي بن محمد بن الشاه الظاهري .

١٢ — كتاب « من وصف امرأة فأحسن » [١٢] للمدائني

١٣ — كتاب « اخبار النساء » لابن قيم الجوزية (مطبوع)

١٤ — كتاب « اخبار النساء » لابن الجوزي (مخطوط في الظاهرية)

٥ — ثم أخذوا يؤلفون في الموضوعات الدقيقة الخاصة بهن . فبينوا احوالهن الدينية في كتب شتى منها :

١ — كتاب «الحيض»[١٣] للقاسم بن سلاّم امام اهل عصره في كل فن من العلم (٢٢٤)

---

(١) معجم الادباء ١٦ — ١٠٧ . (٢) معجم الادباء ١٩ — ٣١٠ . والفهرست ص ١٠٠

(٣) الفهرست ص ١٠٠ . (٤) معجم الادباء ١٩ — ٢٦٢ . (٥) معجم الادباء ١٤ — ١٣٣

(٦) معجم الادباء ٤ — ١٣٣ . (٧) معجم الادباء ١ — ٢١٦ . (٨) الفهرست ص ١٣٤

(٩) الفهرست ص ١٥٠ . (١٠) الفهرست ص ٧٧ . (١١) الفهرست ص ١٥٣ .

(١٢) معجم الادباء ١٤ — ١٣٣ . (١٣) معجم الادباء ١٦ — ٢٦٠

٢ — كتاب « العدّة » [1] لمحمد بن ادريس الشافعي (٢٠٤)

٣ — كتاب « الرضاع » [2] له أيضاً

٤ — كتاب (الطلاق) [3] له أيضاً

٥ — كتاب (الشغار) [4] له ايضاً

٦ — كتاب (الصداق) [5] للمدائني

وهذه الكتب وافرة اكثر من ان تحصى فلتلتمس في الفهرست .

٦ – وقد افردوا للتزين والتجمل والتحلي كتباً كثيرة ذلك لأنها أمور ذات شأن عند النساء ، ومن هذه الكتب :

١ — كتاب (الثياب والحلي) [6] لأحمد بن سعد ابو الحسين الكاتب الشاعر

٢ — كتاب (الحلي) [7] لأحمد بن فارس اللغوي (٣٦٩)

٣ — كتاب (الزينة) [8] للرقي

٤ — كتاب (التزين) [9] له أيضاً .

٥ — كتاب (نخر المشط على المرآة) [10] لعلي بن محمد الظاهري الميكالي الأديب المفاكه

٧ — ورأوا أن الظرف احلى خصائص المرأة ، فألف فيه كتب شتى منها :

١ — كتاب (المتظرّفات) [11] لاحمد بن ابي طاهر احد البلغاء الشعراء الرواة (٢٨٠)

٢ — كتاب (المتظرفين والمتظرّفات) [12] لعبيد الله بن احمد بن ابي طاهر

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) : معجم الادباء ١٧ / ٣٢٤ — ٣٢٧ . وانظر طبقات المفسرين ص ٣٢٧ ، وطبقات القراء ٢ ـ ٩٥ . ووفيات الاعيان ٣ ـ ٤٤٧ . (٥) معجم الادباء ١٤ ـ ١٣٣

(٦) معجم الادباء ج ٣ ـ ٣٩ . (٧) معجم الادباء ٤ ـ ٨٤ . (٨) معجم الادباء ٢٠ ـ ١٣٣

(٩) المصدر السابق . (١٠) معجم الادباء ١٤ ـ ١٥٦ . (١١) الفهرست ص ١٤٦ .

(١٢) الفهرست ص ١٤٧ .

٣ — كتاب (المتظرّفات)[١] لمحمد بن احمد الوشاء ابي الطيب النحوي (٣٢٥)

٤ — كتاب (عرائس المجالس)[٢] لمحمد بن احمد بن عبد الله الكاتب المعروف بالمفجع الشيعي (٣٢٧)

٥ — كتاب (المحبوبات والمكروهات)[٣] للرقي

٨ — ولم يغفلوا عن حياة النساء الخاصة في دورهنّ وصلتهن بأزواجهنّ ، فألفوا في ذلك كتباً كثيرة منها

١ — كتاب (اختلاف الزوجين)[٤] للشافعي

٢ — كتاب (من هجاها زوجها)[٥] للمدائني

٣ — كتاب (من شكت زوجها)[٦] له أيضاً

٤ — كتاب من (مُيِّل عنها زوجها)[٧] له ايضاً

٥ — كتاب (من نهيت عن تزويج رجل فتزوّجته)[٨] له ايضاً

٦ — كتاب (النواكح والنواشز)[٩] له ايضاً

٧ — كتاب (المتزوجات)[١٠] لخالد بن طليق الراوية النسابة

٨ — كتاب (من وافقت كنيته كنية زوجته)[١١] لمحمد بن عبد الله بن حيويه

٩ — ثم تطرقوا فألفوا في علاقات الرجل بزوجه مما يكون بينهما ، وهذه التآليف كثيرة لا جدوى في سردها .

١٠ — ولقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فخصوا الشذوذ الجنسي بكتب وتآليف منها :

---

(١) الفهرست ص ٨٥ . (٢) معجم الادباء ١٧ـ١٩٤ . (٣) معجم الادباء ٤ـ١٣٤
(٤) معجم الادباء ١٩/ ٣٢٤ — ٣٢٧ . (٥) و (٦) و (٧) و (٨) : معجم الادباء ١٤ـ١٣٣
(٩) الفهرست ص ١٠٢ . (١٠) الفهرست ص ٩٥ . (١١) هذا مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق . قسم المجموعات : أدب ١١٦ .

١ — كتاب (السحق)[1] لمحمد بن حسان النملي أحد الكتاب الادباء في عهد المعتصم .

٢ — كتاب (البغاء)[2] له ايضاً

٣ — كتاب (السحاقات والبغائين)[3] لمحمد بن اسحاق الصيمري (٢٧٥) وكان أديباً مليحاً هجاء ونديماً للمتوكل

٤ — ولقد خصّ ابن النديم مسرداً باسماء الكتب التي الفت في (الحبائب المتطرّفات) ولم يذكر مؤلفيها منها :

٥ — كتاب (ريحانة وقرنفل)

٦ — كتاب (رقية وخديجة)

٧ — كتاب (سكينة والرّباب)

٨ — كتاب (سلمى وسعاد) وغيرها[4] .

١١ — وكما ألفوا في أخبار السواقط فقد ألفوا في أخبار الشواعر والعواقل والصالحات . ومن ذلك :

١ — (كتاب (أشعار النساء)[5] لمحمد بن عمران المرزباني الراوية الأخباري (٣٨٤)

٢ — كتاب (العواقل)[6] لابن الكلبي

٣ — كتاب (بلاغات النساء) لأحمد بن ابي طاهر (٢٨٠) ذكر فيه طرائف كلامهن واخبار ذوات الرأي منهن واشعارهن في الجاهلية والاسلام (طبع سنة ١٩٠٨)

٤ — كتاب (الرسا للصالحات من النسا)[7] لعالم الشام في القرن العاشر يوسف ابن عبد الهادي

---

(١) الفهرست ص ١٥٢ . ومعجم الادباء ١٨ ـ ١١٩ . (٢) المصدر السابق .

(٣) الفهرست ص ١٥٢ . (٤) الفهرست ص ٣٠٧ . (٥) معجم الادباء ١٨ ـ ٢٦٩ .

(٦) الفهرست ص ٩٨ . (٧) هذا مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقمه ٤١ ادب . جمع فيه طائفة من أخبار النساء وما ورد في الصالحات منهن وصدّر ذلك بحديث « موّدوا نساءكم المنزل فانه أزين لهن وأرزن ... ».

١٢ — وقدعنوا أَيضاً بأخبار القيان والجواري والمسمعات والمغنيات والنوائح وأمهات الاولاد ، وهذه الكتب وافرة جداً نذكر منها :

١ — كتاب (القيان) [١] للجاحظ

٢ — كتاب (القينات) [٢] لاسحق بن ابراهيم الموصلي

٣ — كتاب (اخبار عزّة الميلاء) [٣] له ايضاً

٤ — كتاب (قيان الحجاز) [٤] له ايضاً

٥ — كتاب (قيان مكة) [٥] للمدائني

٦ — كتاب (المغنيات) [٦] له ايضاً

٧ — كتاب (القينات) [٧] له ايضاً

٨ — كتاب (الاماء والشواعر) [٨] لأبي الفرج الأصفهاني

٩ — كتاب (القيان) [٩] ليونس بن سليمان المعروف بالمغني

١٠ — كتاب (اشعار الجواري) [١٠] للمفجع الشاعر الشيعي

١١ — كتاب (النوائح) [١١] لأحمد بن مطرف القاضي المصري

١٢ — كتاب (امهات الأولاد) [١٢] للطبري المحدّث الفقيه

١٣ — كتاب (عتق امهات الأولاد) [١٣] للشافعي

* * *

تلك هي الكتب التي استطعت ان اعثر عليها في تضاعيف الامهات وثناياها ، ولعل هناك كتباً كثيرة غفلت عنها ولم اعلم بها

(١) معجم الادباء ١٦ ـ ١٠٧ • (٢) الفهرست ص ١٤١ • (٣) المصدر السابق •
(٤) المصدر السابق • (٥) الفهرست ص ١٠٢ • (٦) المصدر السابق • (٧) معجم الادباء ١٤ ـ ١٣٣ • (٨) الاغاني ـ المقدمة ـ ج ١ طبعة دار الكتب المصرية • (٩) الفهرست ص ١٤٥
(١٠) معجم الادباء ١٧ ـ ١٩٤ • (١١) معجم الأدباء ٥ ـ ٦٣ (١٢) معجم الادباء ١٨ / ٦١ ـ ٨١
(١٣) معجم الادباء ١٧ ـ ٣٢٤ — ٣٢٧ •

١٣ — على أن الى جانب هذه الكتب فصولاً كثيرة مبعثرة هنا وهناك ُخصت بالنساء وأخبارهنّ وصفاتهن وأحوالهن وتراجمهنّ، كالتي كتبها ابن عبد ربه في العقد، والنويري في نهاية الأرب، والزمخشري في ربيع الأبرار (مخطوط) وابن قتيبة في عيون الأخبار، والقالي في الأمالي والجاحظ في البيان والتبيين والسخاوي في الضوء اللامع وغيرها .

* * *

افبعد ذلك كله — وإن قلّ ! — تقولون ان العرب والمسلمين لم يحفلوا بالنساء ولم يؤلفوا في اخبارهن ..؟

دمشق : صلاح الدين المنجد

الغوطـة

- ٢ -

مدنية الغوطة

أجمع من وصفوا الغوطة على اختلاف العصور أن فيها قرى كالمدن ، وأن أهلها كأهل الحاضرة أي دمشق ، ومنذ القرن الثامن قال ابن بطوطة ان في اكثر قرى الغوطة الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم ، ولولا أن تبدلت معالم الغوطة مرات لشهدنا عمراناً قديماً ، وما زلنا كلما حفرنا في الحقول البعيدة عن مراكز القرى نعثر على دمن تدل على عمران قديم فخم ، وعلى ثروة وحضارة . وكان بناؤهم بالحجر الصلب على بُعد المقالع عن الغوطة ، ومعظم بنيانها الآن باللبن ويقل فيها البناء بالحجر .

وحدثتنا الكتب أنه كان في بعض قرى الغوطة جوامع متقنة ، وكان فيها قصور صبرت على الأيام مثل قصر بيت لهيا في طريق الواصل من مدينة السلام بغداد والراحل اليها ، كانت لغني اسمه السكسكي ، وكان له في اقليم بيت لهيا عدة قصور مبنية بالحجر والخشب الصنوبر والعرعر ، في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه ، وكان هذا القصر في ارض حرستا . وروى المؤرخون ان القصر الذي بُني للمتوكل كان في طريق داريا ، وان البانين اختاروا هذا المكان لبعده عن ضباب الغوطة ورطوبتها ، قال المسعودي : ان المتوكل لما نزل بدمشق أبى ان ينزل المدينة لتكاثف هواء الغوطة عليها ، وما يرتفع من بخار مياهها ، فنزل قصر المأمون وذلك بين داريا ودمشق على ساعة من المدينة في أعالي الأرض ، وهذا الموضع بدمشق يشرف على المدينة واكثر الغوطة ، وكان يعرف بقصر المأمون الى سنة ٣٣٢ ، وفي عيون التواريخ للكتبي ان المتوكل أقام بدمشق سنة ٢٤٤

وبنى بها القصور ، وهي التي بطريق داريا ، ثم انه استوخمها ورأى أن هواءَهـا بارد رديء وماءَها ثقيل بالنسبة الى هواء العراق ومائه ، ورأى أن الهواء يتحرك بعد الزوال في زمن الصيف فلا يزال في اشتداد يثير الغبار الى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار وانقطعت الأجلاب ، فضجر منها بسبب كثرة الشتاء والثلوج ، ومعلوم أن المتوكل كان غريب الأطوار ضجرت منه أمته فقتلته ، ولا عجب أن أضجره هواء دمشق وماؤها

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به المـاء الزلالا

وكان في الغوطة في القرون الوسطى والقرون الأخيرة قصور مشهورة ، منها ما بناه الملوك ، ومنها ما بنته الرعية او الأغنياء . ولما انقطع عيث البادية في الغوطة أوائل هذا القرن الهجري صحت نية اغنياء دمشق ممن يملك أرضين في ضاحيتهـا او قراها على اقامة القصور الجميلة ، وخربت هذه القصور والدور البديعة في الثورة السورية (١٩٢٥ — ١٩٢٦) . وأهم ما أصابه الحريق والتدمير قصور برزة والقابون والعنابة وجرمـانا والمنيحة والحديثة وزبدين وحمورية والافتريس وجوبر والمِزّة ، ومن القرى ما دثر برمته مثل جسرين والمنيحة وبرزة كما خربت في دمشق أجمل دورها وقصورها الأثرية .

كانت الأرض الموقوفة في الغوطة كثيرة جداً ، وقد قلت في العهد الأخير واستبدل بعضها ، وكان من السلاطين من يقفون سهماً من ضيعة أو ضيعة برمتها أو ضياعاً على اعمال الخير كما فعل نور الدين محمود بن زنكي صاحب مصر والشام فانه بنى قصراً للفقراء في الربوة ووقف عليه قرية داريا اعظم قرى الغوطة واغناها ، لتكون قصورهم الى جانب قصور الأغنياء فقال الشاعر الكندي :

إن نور الدين لما أن رأى   في البساتين قصور الأغنيا

عمر الربوة قصراً شاهقـاً   نزهـة مطلقة للفقرا

وبقيت قصور الأغنياء في الربوة الى القرن العاشر، وما من اثر اليوم لأنقاض قصر الفقراء ولا لقصور الاغنياء ولا لقصر المأمون والمتوكل ولا للقصور الدارسة في الربوة والشرف الأعلى والشرف الأدنى من غربي دمشق ، كل أولئك خرب على عهد العثمانيين ، بما لاقته البلاد في القرن الذي قبل القرن الماضي من تعدي عسكر الانكشارية وسوء ادارة القائمين بالأمر .

روى البدري انه كان في كل شرف من ذينك الشرفين عدة من المدارس والمساجد ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء فأظهروا فيها انواع المفاسد ، قال النواجي :

ألا إن وادي الشام أصبح آية — محاسنه ما بين اهل النهى تتلى
وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل — دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

وفي الشرف الأعلى اليوم قامت حديقة الأمة والمشتل الزراعي ومدرسة التجهيز للذكور ، وهي من المباني المحدثة البديعة ، وفي الشرف الأدنى أقيمت الثكنة الحميدية والجامعة السورية والمستشفى الوطني ودار الآثار والتكية السليمانية .

ذكر ابن عبد الهادي من اهل القرن التاسع في تاريخ الصالحية من المحاسن محلات الشرفين المطلين على الميدان أي الميدان الأخضر الذي نطلق عليه اسم مرج الحشيش اليوم ، وكان عامراً من الطرفين ، وفيه خطب ومدارس ودور الأمراء وتدق نوباتهم في كل ليلة ، وفيه حوانيت وخانات حتى يوصل منه الى النيرب ثم منه الى الدهشة ومنها الى الربوة ، قال وكان جميع ما تقدم في تاريخ السبعمائة عامراً آهلاً ، وتعدى عليه في عصر الثمانمائة وبطلت منه الخطب والى الآن ، قال : وبقية الأماكن من الربوة الى السهم والنيرب والشبلية ومحلة طاحون الشنان ومحلة الميطور وقصر اللبان والشرفين فكلها تبدلت بعد الأماكن بالجنان .

ومع شدة اختلاط الغوطيين بأهل الحاضرة لا تزال الأمية غالبة عليهم ، ولا تزيد المدارس الابتدائية التي أنشأتها الحكومة فيها عن ثنتين وعشرين مدرسة

للذكور والاناث ، والواجب أن تكون ثمانين نصفها الذكور والنصف الآخر للاناث ، ولم ترسل الحكومة اليها الوعاظ والخطباء من طبقة جيدة فأصبح المجال رحباً للمخرفين ، يؤذون العقول بخرافاتهم ويستلبون مافي الجيوب ، ويقلّ الذكاء في الغوطة ويكثر النشاط .

خرج من الغوطة أجلة المحدثين والفقهاء والأدباء والحفاظ ومنهم الحافظ الزملكاني والحافظ اليلداني ، وخرج من حرستا محمد بن الحسن صاحب الامام أبي حنيفة ، ذكر بعض من أخرجتهم أرضها ممن كتبوا في خطط هذه المدينة وغوطتها ، وعنوا بالرجال من أهلها فترجموا لهم ولا سيما لحفاظ الحديث .

نعم كانت معظم قرى الغوطة أشبه بمراكز علم ورواية ، ومن جملة تآليف الحافظ ابن عساكر من أهل القرن السادس كتاب روايات ساكني داريا ستة أجزاء ، وكتاب من نزل المزة وحدث بها جزء واحد ، وكتاب أحاديث كفرسوسية جزء واحد ، وكتاب احاديث صنعاء الشام جزءان ، وكتاب فضل الربوة والنيرب ومن حدث بها . وكتاب حديث الحميريين وقبيبة جزء واحد ، كتاب حديث أهل فذايا وبيت أرانس وبيت قوفا جزء واحد ، وكتاب حديث أهل قرية البلاط جزء ، ومن حديث اهل زبدين وجسرين جزء واحد ، ومن حديث سلمة بن علي البلاطي جزءان ، ومن حديث أهل بيت سوى جزء واحد ، ومن حديث دومة ومسرابا والقصير جزء ، ومن حديث جماعة من أهل حرستا جزء ، ومن حديث أهل كفربطنا جزء ، ومن حديث أهل دَقَانِية [1] وجحيرة وعين ثرماء وَجدَيا وطرَميس جزء ومن حديث جماعة من أهل بيت لهيا جزء واحد . ومن حديث يحيى بن حمزة البتلهي جزءان . ومن حديث أهل برزة جزء . اه وجميع هذه القرى من قرى الغوطة والذي دثر منها صنعاء الشام أو صنعاء دمشق ، وكانت في منتصف الطريق بين دمشق والمزة خرج منها محدثون كثار ، ومنها النيرب والحميريون وفذايا وبيت أرانس وبيت قوفا والقصير

(١) ذكرها ابن طولون في ضرب الحوطة والغالب انها دثرت بعد القرن الحادي عشر

ولاقانية وجديا وطرميس وبيت لهيا وقبيبة . وبعض قرى الغوطة كانت الى القرن الثامن والتاسع تزدان ببعض العلماء والأدباء ، ويكفي ان مثل الحافظ الذهبي في القرن الثامن كان يدرس في كفربطنا ، وزعم ابن طولون الصالحي ان الذهبي من جماعة من الأئمة المحدثين الذين خرجوا من كفربطنا أي انه من أهل هذه القرية .

وبعد فان الغوطة اليوم ينقصها كثير من مرافق المدنية ، اذ أتت عليها قرون كانت الحكومة تأخذ خيرها وأموالها ولا تنفق عليها واحداً في المئة مما تأخذ ، فتأخرت بمعارفها وتعطلت طرقها وجسورها ومدارسها وجوامعها ، وليس فيها غير بضع طرق معبدة في الجملة ، وهذا مما تم في العهد الأخير ، وطرقها القديمة عريضة جداً فاستصفى اكثرها بعض من يستحلون كل شيء في جمع ثروتهم

هذا وليس في الغوطة من آثار المدنية سوى خط ترام كهربائي يربط دمشق بحاضرة الغوطة الشمالية اي دومة ، وطوله أربعة عشر كيلومتراً يمر ببساتين العنابة وأرض جوبر وزملكا وعربيل وحرستا ودومة ، واذا امتد هذا الخط الكهربائي فوصل بين دومة وداريا فدمشق ماراً بأمهات قرى الغوطة الوسطى والجنوبية مثل حمورية وسقبا و كفربطنا وجسرين والحديثة وزبدين والمنيحة وجرمانا وعقربا ويلدا وببيلا والقدم و كفرسوسية والمزة ، اي ربطت الغوطتان القبلية بالشمالية ، ومدت قساطل ماء عين الفيجة الى القرى كافة (والقوم يشربون الى اليوم من آبارلهم ترشح من الأنهار القذرة) تصبح قرى الغوطة محيطة بدمشق احاطة الهالة بالقمر ، وتغدو هذه المزارع والقريات كأنها بعض أحياء الفيحاء ومحلاتها ، وتنقلب بعض تلك الدساكر مصايف ومشاتي ، وكلما زاد عدد الجادات العظمى فيها وبنيت الفنادق والمقاهي تغدو الغوطة قبلة المتنزهين ، وكلما زاد عدد البيوت والقصور استحالت الغوطة من أرض زراعية الى منازل تتسع بها دمشق حتى تصبح عاصمة كبرى كالقاهرة .

اذا تم هذا يتحقق في الغوطة ما ادعاه بعض المفسرين في قوله تعالى « إِرَمَ ذاتِ العِمادِ التي لمْ يُخلق مثلها في البلاد) من أن ذات العماد هي دمشق حاضرة

الغوطة وكان فيها فيما قيل أربعمائة الف عمود ، وفي قوله تعالى (وآويناهما الى رَبوةٍ ذَاتِ قرَارٍ ومَعين) من انها أيضًا مدينة دمشق بأرض يقال لها الغوطة .

طرائقها الزراعية

قال أحد العارفين ان لمدينة دمشق طابعًا خاصًا في مرافقها ومصانعها وأوضاعها ومناحيها ، قد لا ترى ما يماثله في البلدان الأخرى ، وهذا الطابع يتناول غوطتها أيضًا ، فان الناظر في ارجائها لا يزال الى اليوم يرى الزراعة فيها على الطرق القديمة ، لم تتسرب اليها الأساليب الحديثة الا قليلاً ، ثم ان ما أدخلته من التحسن في زراعتها وصناعاتها الزراعية قد تلحظ أنها تمثلته وتبنته ، فهي تسير في معظم حالاتها على أصول الأجداد ، ولكن مع الاتقان والاحتفاظ أبداً بطابع القرون الغابرة ، ومعظم ما عملته فيها الأيدي والعقول لا يبدو عليه التجدد الا بقدر الخال في الوجه الجميل ، ذلك لأن من عادة الغوطيين الا يبادروا الى اقتباس الجديد الا اذا قامت لهم البراهين على عظيم فائدته ، ويعصون على مالم يألفوا ، لا يخرجون عن طبيعة أرضهم ، وقد عرفوا بالصبر على استثمار الشجر واستنبات النبات .

يستخرج الغوطيون الزيت من زيتونهم ، والدبس من عنبهم ، والعصير (القمرالدين) من مشمشهم ، والورد والعطور من زهرهم وورودهم ، والصابون من زيتهم ، والأجبان والسمون والزّبد والقشدة من البانهم ، والطحينة والشيرج من سمسمهم ، والنشاء من برّهم . ويقطفون الزيتون والجوز بعصيهم ، وينقعون القنب في حُفرهم ، ويستخرجون أليافه على أسلوبهم ، ومنها يفتلون حبالهم وخيوطهم ، ويدبغون من جلود حيواناتهم سختيانهم ، ويحيكون من صوفهم قماشهم وثيابهم ، ويتخذون من اخشابهم أدوات زراعتهم وصناديق فاكهتهم ومنجور بيوتهم ، ووقودهم من حطبهم وبناؤهم من ترابهم وما برحوا يعلفون دوابهم بالقديم من طرائقهم ، ويحرثون الأرض ويزرعونها ويسقونها على نحو ما كان يفعل آباؤهم .

وما جلب بعض الغوطيين الآلات الرافعة واعتمدوا عليها لإرواء صعيدهم إلا

لما أعوزتهم اسالة المياه من أنهارهم ، وشحت الجداول في بعض السنين فخافوا أن تصوح ادواحهم ، وما عرفوا الأسمدة الكيماوية الا عندما قلت الأسمدة الطبيعية ، وما عادت تكفي لما طمحت نفوسهم الى تسميده وتجديده من الأرضين ، وما ألفوا تذرية الحبوب بالآلة التي اوجدها احد مواطنيهم الا لما ثبت لهم ان تذريتها بالمذراة وتحين هبوب الريح ، مما يطيل امد استخراجها من تبنها ، وتضيع عليهم بعض حباتها .

وكأن الغوطة السمحة التربة ، المعتدله الهواء ، الصافية الأديم تعطف على الفقير أيضاً ، فلا ترى أن تقطع رزقه ، وتحرم الصانع والعامل من أبنائها أجور سواعدهم ، فلا تعمد الى الآلات والأدوات الحديثة الا في أحوال شاذة . الغوطة تتوقى الغلطة التي وقع فيها الغرب لما استعاض عن الأيدي العاملة بما اخترع من الآلات ، فهي لا تريد أن ترتكب هذه السقطة لئلا يكثر فيها الناقمون والموتورون ، ثم تعم الاشتراكية ، وتنتشر الفوضى ، ويفسد الأمن ، ويتقلقل الحكم .

ورث الغوطيون عن آبائهم معرفة تأثير الهواء في الزروع والأشجار ، وأخذوا عنهم أصول زراعة الارض واستثمارها ، ومعرفة تربتها واروائها ، وما يصلحها وما يضرها ، لا يخلون بشيء مما نقلوه عنهم ، وأساليبهم في ذلك سليمة في الجملة ، وقد تكون أقرب الى العمل من كثير مما اهتدى اليه العلم الحديث ، وصعب عليهم تطبيقه ، والانتفاع به حق المنفعة . رسخت في نفوسهم طرائقهم القديمة ، فمن الصعب ان تزين لهم طرقاً جديدة يتبعونها ، وندر من تعلم الزراعة من ابنائهم على الأصول الحديثة ، اكتفاء بالذي ثقفوه عن أجدادهم .

فعلى عاتق الحكومة ، والحالة هذه ، واجب تعليم الغوطيين فيما تربو به مكاسبهم ، وتعتقد فيه هناءتهم وناعمَ عيشهم . وعليها ان تقيم لهم المخابر والمشاتل والمناحل وحظائر الدواجن الى ما شاكل ذلك على ما يقضي به العلم العصري ، ويفرض على حكومة ترى من الواجب عليها انماء الثروة العامة ، أن توجد للعاطلين أشهراً من كل عام ، عملاً

يقتاتون به . ولو صرفت العناية بالصناعات الزراعية ، ولا سيما تربية المواشي والنحل وتربية الدواجن والطيور اكثر مما عليه الحال الآن ، لكان للغوطة من وراء ذلك أرباح ثابتة لا يُستهان بها تُضاف الى رَيع أرضها وغاباتها ، فان البقر البلدي والماعز البلدي في الغوطة هما من عرق أصيل لا يكاد يكون له مثيل في سائر أقاليم الشام ، لكثرة ما يدرُّ من الألبان الجيدة . وهذه الأنواع من الضرع لا تعيش في غير ظلال الغوطة ، ولا تستمرئ غير مراعيها ومياهها ، ويسقط النحل بما في الغوطة من أشجار مثمرة وأزهار عطرة على غذاء شهي لا مثيل له في الأقاليم الأُخرى .

كان في الغوطة صناعات زراعية رابحة نازعتها صناعات أرقى ظهرت في اقطار أخرى ، فعطلت تلك الصناعات او ضعفت ضعفاً محسوساً لقلة الصادر منها الى الاقطار المجاورة على الأقل ، كما حدث للصابون لما نازعه الصابون الغربي الذي هو هناك وليد الكيمياء الحديثة ، وكما حدث للعطور والطيوب لما اخترعت الطيوب الاوربية نتيجة لازمة ايضاً لانتشار الكيمياء ، وكما توقفت منسوجات القطن والكتان والحرير فبارت .

وقد أبقى لنا شيخ الربوة من أهل القرن الثامن في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) صورة استخراج العطر من ازهار الغوطة وورودها ، قال : ان حراقته تلقى على طرقات المزّة وفي دروبها وازقتها كالمزابل فلا يكون لرائحتـه نظير ، ويكون ألذّ من المسك الى مدة انقضاء الورد . وذكر صنعة اخراجه بالكركات والانابيق ، ورسم صورها وطرق استعمالها ، وما هنالك من كركات أخرى يستخرج منها ماء الورد وغيره من المياه بلا ماء بل بوَقود الحطب ، وذلك بعد حشو القرع بالورد وبلسان الثور وبزهر النيلوفر أو البان وزهر النارنج والشقشقيق والهندباء او بورق القرنفل .

قال ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك ، وكذلك يحمل زهر الورد المزي الى الهند والسند والصين والى ما وراء ذلك ، ويسمى هناك الزهر . ومما أرخوه انه كان لقاضي القضاة الحنفية ولأخيه قطعة بأرض تسمى شوز الزهر طولها مائة وعشر خطوات ، وعرضها خمس وسبعون خطوة ،

باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم ، وذلك سنة خمس وستين وستمائة ، وهذا لم يسمع بمثله ٠

وفي العهد القديم أيضاً كانت بعض القرى تختص بأشياء قد لا توجد في غيرها ، فقد ذكر القرماني أن في «عقربا» العنب الزيني الذي لا نظير له ، واليوم ليست كذلك ، ولا يجود هذا الصنف من العنب في غير قرية داريا ، ويجود في مدينة دمشق وحدائقها انواع العنب الكبير الحجم كالبلدي والبيتموني وغيرهما ، وكان ينسب القماش الى عقربا ايضاً فبطل عمله فيها من قرنين على الأغلب

روى البدري في محاسن الشام انه كان بالغوطة أشجار تحمل الواحدة منها اربع فواكه كالمشمش والخوخ والتفاح والكمثرى ، وبها ما يحمل الثلاث واقلهن اللونان من الفاكهة قال : وهذا موجود الى يومنا هذا (القرن التاسع) فاني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والاسود والاحمر ، رأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الابيض والاسود قال : وهذا من صنعة الفلاحة ويسمى التطعيم ، وذكر صورته كما هي معروفة الى اليوم ٠

ورأينا لهذا العهد قرية جرمانا تصنع أعبئة من الحرير والمرعز وغيرهما تليق ان تكون كسوة الملوك والملكات لجمال صنعها وتفويفها ، وقد نازعتها الألبسة الجديدة حتى كاد يقضى على انفع لباس اخترعته العرب في الدهر السالف ، وهو صالح لكل زمن لأنه لباس وغطاء ووطاء ، يقي البرد والحر ويتجمل به الرجال والنساء ٠

متنزهات الغوطة

في الغوطة عدة متنزهات هام بها الشعراء وذكروها ، وحنوا اليها حنو الحبيب لحبيبه ، منها (سَطرا) و (مَقرا) وفيهما يقول عبد الرحمن ابن خطيب داريا وقد أحسن التورية :

خليليّ ان وافيتما الشامَ بكرة   وعاينتما (الشقراء) والغوطة الخضرا
قفا واقرأا عني كتاباً كتبته   بدمعي لكم (مقرا) ولا تنسيا (سطرا)

و (الشقراء) مطلة على المرج الأخضر وعندها اليوم طاحون يقال لها طاحونة الشقراء ، و (مَقرَا) المكان المعروف عند طاحون الثنان في شمالي شرقي البلد . و (سطرا) عند جامع منجك قرب برج الرؤوس من ناحية الشرق ، وكان (البلكي) متنزهاً حسناً بين سطرا ومقرا . روى البدري ان الناس يجتمعون فيه أيام زهر السفرجل ويطلقون الماء تحت أشجارها ، ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ، ويعلقون قشور النارنج موقدة في الاشجار ، ويضربون الخيام في بستان الحاجب ، ويقطعون فيه أياماً وأوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها .

قال ابن طولون الصالحي : أعظم متنزهات دمشق (الربوة) كان بها اربعة مساجد وجامع بخطبة ومدرسة وكان بها (التخوت) وهو قصر مرتفع على سن جبل به قاعة وطبقات على هيئة الايوان ينظر الجالس هناك من مسافة يوم لو لم يكن حائل به ، وكان بها خمسة مقاصف[1] اثنان شرقي نهر بردى وثلاثة غربيه ، وكان بها (العاشق) و (المعشوق) وهما برجان للحمام في لحف الجبل الغربي وشماليها برج عتيق يسمى (العذول) . وقال : انها خربت ثم عمرت وهكذا مراراً ، وفي عهده بقيت مأوى للوحوش قال بعضهم :

شوقي (يزيد) وقلب الصب ما بردا (وبان يامي) من (المعشوق) حين غدا
ومدمعي (قنوات) والعذول حكى (ثورا) بلوم الفتى في عشقه حسدا
على مغنية (بالجنك) جاوبها شبابة كم بها من (عاشق) سهدا
فالبدر (جبهتها) والدف (ربوتها) وخلها مات في (خلخالها) كمدا

و (الخلخال) و (العاشق) و (المعشوق) و (الجنك) و (الجبهة) و (الدف) كلها من متنزهات دمشق في غربي المدينة .

(١) التقصف : اللهو واللعب على الطعام والشراب ، والمقصف محله وكانت المقاصف قبل ان تكون المقاهي وكلاهما يتشابهان .

يقول ابن طولون : وفي شرقي الربوة (قطية) وهو مكان كان فيه سمان وشرائحي ومقاصفي وقد خربت ، وشرقها في الطريق المذكور (الجبهة) على حافة نهر بردى له مسجد ودكاكين ومقصف ، وظل الدف والجنك معروفين الى القرون الأخيرة فقد ذكر الرحالة الخياري في القرن الحادي عشر (الباسطية[1]) من متنزهات الصالحية وقال انه مرّ أيضاً في طريقه الى الربوة بالنيربين والجنك والدف والميطور وهي أسماء متنزهات . وقد مدح الأمير منجك قصر والده في غربي المدينة بقوله :

قصر الأمير بوادى النيربين سقى ربائك عني من الوسمي مدرارُ
كم مرّ لي فيك أيام هواجرها أصائل ولياليهن أسحار
حيث الشبيبة بكر في نضارتها وللصبابة احلاف وأنصار
حيث الرياض تغنيني حمائمها (بالدف) و(الجنك)و(الميطور)لي جار
حيث الخمائل أفلاك بها طلعت زهر من الزّهر والندمان أقمار

وتشوّق ابو المحاسن الشواء الحلبي الى متنزهات دمشق ، ومنها ما دثر اسمه اليوم بقوله :

عاطياني حديثَ (سطرا)و(مقرا) وابسطالي في هجري الكأس عذرا
أنا مالي وشربَ كاسات خمر شغلتني عنهن كاسات ذكرى
كم نعمنا في (بيت لهيا) بلهو وعلونا (بالقصر) و (السهم) قصرا
ومررنا (بدير مران) نشدو فيه نظماً وتسجع الوُرق نثرا
نتفيا مابين (الارزة[2]) والقا بون دوحًا يبدل القيظ ُقرا
إن عندي يا (بيت أبيات) و (السيـ لون[3]) شوقًا اليكما مستمرا

(١) لم يذكر اسمها فيما أمامنا من الأسفار .
(٢) أرزة كانت الى القرن العاشر موجودة كما قال ابن طولون .
(٣) بيت ابيات حارة كانت غربي الصالحية ـ قاله ابن طولون الصالحي ـ ولم يذكر في المراجع اسم (سيلون) وسيلون اليوم بستان مطلّ على الربوة من أرض المزة وهو ملك سمو الامير يوسف كمال .

بأبي (برزةً) فكم قد برزنا   نتهادى فيها الى القصف جهرا
يا خليليَّ ساعداني واني   كنت بالحب قبل ذا اليوم غِرّا
خبراني عن (القصير [1]) و (حرنا)   بخبير وددت لو كان خبرا
(معربا) و (الدريج [2]) و (التل) جنا   ت بعدنا عنها ولم نأت وزرا
و (مَنين) بها مناي فمن لي   أن أقضي فيها من العمر شطرا
فثنايا على (الثنيـة) قصـا   وابسطا لي عذراً بأكناف (عذرا)
عللاني (بكفربطنا) و (جديا)   وذراني من ذكر لُبنى وعَفرا
واسألا لي عن (جوبر) ثم (جرمانا) فلي فيهما مآرب أخرى
واكم بين (دومة) و (حرستا)   غرف توقف النواظر حسرى
وَدَّ جفني ان لو غدا بين (يروى)   و (كثار [3]) يكاثر المزن قطرا
(فلقلبين) بات قلبي مشوقاً   و (لعربين) ظلت العين عبرى
(بزملكا) و (عين ثرما) و (سقبا)   و (بجسرين) ظلت اربع شهرا
لي رياض كأنهن السموا   ت تضاهي زهر الكواكب زهرا
ثم قصّا عليّ أخبار (أشفا   نية [4]) تغنما بذلك اجرا
فلنا حولهـا مطارح لهو   مسّ كف الحيا ثراها فأثرى
(حافباتا) و (بيت قوفـا) و (بيلا) و (يلدا) قرىً بها أنا مغرى
انتحي حيثما توجهت ظـلاً   وأرى حيثما تلفت نهرا
ولنـا تحت دوحهـا حرم نأ   وي اليه اذا الهجير استمرا
(بحجيرا) و (تلفياتا) و (دير البا   لسي [5]) انهمكت في اللهو سرا

(١) في ضرب الحوطة ان القصير غربي كفرسوسية

(٢) معربا والدريج وحرنة ومنين والثنية ثنية العقاب من قرى جبل سنير أي قاسون شمالي النوطة .

(٣) ان كلة كثار ويروى اسم قريتين أو متنزهين من متنزهات النوطة على ما يظن .

(٤) أشفانية لم نتحققها ولعلها شفونية أو اشفونية من قرى المرج

(٥) من القرى التي لم نعرف لها ذكراً فيما لدينا من الكتب .

دمن لو أقيس حسن دماهـا بسواهـا لجئت شيئاً نكراً
واذكرا (عقربا) و (دير العصافير[1]) لسمعي ان شئتما ان تسرا
فالى (بيت رانس) والى (دير النواطير[2]) هزني الشوق سكرا
ولنا (بالبلاط) أوقات أنس نجتليهـا محجلاتٍ غرّا
كم فتكنا بالهمّ فيها وأوسعنا صروف الزمان هجراً وهجرا
وشممنا من روض «زاوية» نفحة ريح أذكى من المسك نشرا
يا ليالي «بكفرسوسية» كانت وهي «بالمزة» الأنيقة زهرا
ويك عودي لا اخضر عودي ان رمت مدى الدهر عن جنابك صبرا
فسقى واكف الحيا ربوة ذات قرار بهمي ليالي عشرا
جاء في محكم الكتاب لها وصف فماذا يقول من قال شعرا

ومن متنزهات الغوطة [السهم] وهو متصل بأرض الصالحية قال البدري في محاسن الشام: وهو درب ما بين دور وقصور وفاكهة وزهور ومياه تجري بهدير كالبحور، وفيه يقول القيراطي:

دمشق بواديها رياض نواضر بها ينجلي عن قلب ناظرها الهمُّ
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها [نصيب] [ولا سهم][3]

قلنا: ان من متنزهاتهـا الخلخال، وكان هو والمنيبع محلتين، وفي محلة الخلخال سويقة وحوانيت وفرن وحمام وهي مسكن الأتراك (في القرن التاسع) وكذلك المنيبع والشرفان وبه تدق طبلخاناتهم وبها زاويتان، وفي المنيبع محلة وسويقة وحمام وافران وبها مدرسة الخاتونية وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها وبجوارها دار الأمير ابن منجك [قاله البدري] يتبع

(١) من قرى المرج (٢) قرية أو متنزه لم نر له ذكراً في الكتب.

(٣) السهم من متنزهات دمشق والغالب أن اسم نصيب هو متنزه أيضاً ولكن ليس له ذكر فيما رجعنا اليه من المصادر، ونصيب قرية من قرى حوران.

مخطوطات ومطبوعات

ديوان الشبيبي

أذكر ان السيد محمداً رضا الشبيبي هبط دمشق الشام سنة ١٩٢٠ ، وأقام بغرفة تطل على شجرات شارع جمال باشا الذي سمي بعد انزعاج الترك عن الشام : شارع النصر ، وقد كنت أزوره في تلك الغرفة وأتمتع بسهولة خلقه ، وهدوء طبعه ، واني لفي زيارته في يوم من الايام اذ مرّت بالشارع صِرمة من الإبل يحدوها فتى أعرابي ، فوقعت عين السيد الشبيبي على تلك الإبل فانحدرت دموعه على خديه ، فبلغ مني العجب كل مبلغ ، ولكني لم اسأله عن بكائه ، ولم يستطع ان يكتم سبب البكاء ، فقال : أتعرف لماذا أبكي ؟ اني لما رأيت هذه الإبل ، ذكرت العراق وإبل العراق وصحراوات العراق ، فاشتد بي الحنين الى الوطن فبكيت .

اذا شاء القارئ ان لا يجد في هذا الخبر شيئاً ذا بال فله رأيه ، غير اني لا استطيع ان امرّ بمثل هذا الخبر من دون ان اجعل له صلةً قوية بشاعرية السيد محمد رضا الشبيبي ، فان تلك الدموع المضطربة على خديه كانت لي عنوان شعره ، ولم اعجب بعد ما رأيت من فرط رقته من ان يكون ديوانه مرآة صادقةً تعرض علينا ما تعاقب على العراق في خلال ثلاثين سنة من احداث ، وما تقلب فيه من آلام .

وسواء اكانت هذه المرآة تعرض علينا صورة الحماسة ام الاجتماع ام الاخلاق ام الوجدان ام الوصف او الرثاء فانها مرآة من العصر الذي عاش فيه البحتري وأمثاله ، على صورها رقة ذلك العصر ، وعذوبة تلك الأيام ، والذين يرون في زمننا هذا ان الشعر العربي قد مات او كاد يموت فاني اقول لهم : طالعوا ديوان

الشبيبي ، فان الشعر العربي النقي الديباجة ، الطاهر الغرض ، لا يزال حياً ، ولا تخلو هذه النقاوة وهذه الطهارة من كثير من البساطة ، والبساطة انما هي عنوان العظمة في كل شيء ، وقد فطن السيد الشبيبي الى فضلها فقال :

متى خيروني في الكلام ونسجه رضيتُ بسيط القول لم أتأنق

ولماذا لا اذكر نموذجاً من هذا الشعر :

يا راكبين الى دمشق تزودوا منا السلام ، لكل ركب زاد
الملك مضطرب النظام ، كأنه جسد ، دمشق الشام منه فؤاد
هل في مروج الغوطتين لأهلها ولرائديها مَربع ومَراد
وهل الرُّبا حُلل ضواف طُرِّزت وطرازها الازهار والأوراد
وشيت من الروض الاريض مطارف خضرُ الأديم ، وفوِّفت أبراد
بين الغصون ومن مشين تشابه في الحال ، كلٌّ مورق مياد
تلك القصور كأنهن قلائد فوق الشطوط كأنها اجياد
أو ما تزال على معاهد جلقٍ ترد الضيوف ونصدر الورّاد

* * *

هذا هو الشعر الذي اذا قرأته فانك تشعر بأنك تقرأ شعراً عربياً عليه آثار بيان العرب وأسلوب العرب وتصوير العرب ، فلا عجمة في هذا البيان ، ولا غرابة في هذا الأسلوب ولا رطانة في هذا التصوير .

شفيق جبري

كتاب الذخيرة أيضاً

في مثل هذه الايام من العام الماضي علق البصر بهذا السفر النفيس لابن بسام فسرحت الطرف في فهرسه ألتهم موضوعاته وانا لا اكاد اصدق من فرط السرور ان الزمان سيسمح بنشر هذا الكتاب . وقفت عند رقم يتعلق بالامام ابن حزم الذي كنت انتهيت من اصدار كتابي عنه قبيل ذلك، فقرأت متثبتاً ما ذكر عنه ابن بسام، فوقفت عند بعض التصحيف ولما طالعت ما كتب في التعريف بالكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي احببت ان ارفع ما عنّ لي من ملاحظة الى الأساتيذ الأجلاء الذين فرغوا انفسهم لخدمة هذا الأثر الجليل ولحضراتهم الفضل :

١ — في ص ١٤٤ هذا البيت :

كأنك بالزوار لي قد تنادروا وقيل لهم اودى علي بن احمد

ولا معنى فيه لـ [تنادروا] والصواب : [تبادروا] بالباء كما في ارشاد الأريب ونفح الطيب [ترجمة ابن حزم]

٢ — في ص ١٤٥ :

هنالك تدري ان للعبد غصة وأن كساد العلم آفته الغرب

والصواب كما يقتضيه السياق وكما في المصدر السابق :

هنالك تدري ان للعبد قصة وان كساد العلم آفته القرب

٣ — أرجح ان [تشوقوا] في قوله ص ١٤٥ :

فوا عجبا من غاب عنهم تشوقوا له ودنو المرء من دارهم ذنب

محرفة عن [تشوفوا] بالفاء بمعنى اشرأبوا، وهو اجود .

٤ — لم اجد معنىً مناسباً لكلمة [سغب] الواردة في قوله ص ١٤٦ :

وان رجالاً ضيعوني لضيع وإن زماناً لم انل خصبه سغب

والصحيح مافي ارشاد الأريب : وان زماناً لم انل خصبه جدب

٥ — وكذلك كلمة (ميقعة) في قوله ص ١٤٦ :

ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة وتارة في ذرى تاج على ملك

والميقعة — كما في القاموس — خشبة القصار يدق عليها ؛ والمطرقة ؛ والموضع الذي يألفه البازي والمسن الطويل . وليس لأحد هذه المعاني مناسبة في البيت . وانما الصواب : « تحت متربة » كما في نفح الطيب

٦ — في ص ١٤٢ : « جهله بسياسة العلم التي هي اعرض من ايعابه » والذي احفظه: « اعوص من اتقانه »

٧ — في ص ١٤٢ : « ابوه الوزير المعَقّل في زمانه » ولم ار مسوغاً للتشديد لأن [المعْقِل] بالتخفيف اسوغ .

٨ — في ص ١٤٢ : « فما من شرف الا مسبوق عن خارجية » ولعل صوابها : فما من شرف إلا مسوق عن خارجيته : كما في ارشاد الأريب [ترجمة ابن حزم] .

٩ — لعل الأولى في كلمة [رحم معقومة] المذكورة في ص ١٤٢ ان يقال : « رحم معقوقة » بالقاف لا بالميم

١٠ — ضبطوا في ص ١٤٤ [تَحرقوا] بفتح فسكون ؛ وانما الفعل بالمعنى المذكور رباعي لا ثلاثي ؛ فالصواب : [تُحرقوا] بالضم فالسكون .

١١ — في ص ١٤٣ : « الفصل بين اهل الآراء والنحل » والمعروف من المصادر : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » والكتاب مطبوع متداول . وكذلك كتاب « كشف الالتباس ما بين اصحاب الظاهر واصحاب القياس » صواب [ما] ان تكون [لما] .

هذا ما لفت نظري في الصفحات الخمس المتعلقة بابن حزم . وقد اعجبني الاعجاب كله كلمة الدكتور طه حسين في ختام مقدمته :

هناك نصوص لم تستقم لنا ولم نوفق الى اقامتها ، ومن الجائز بل من الراجح ان تكون هناك اغلاط قد مرت بنا أو مررنا بها فلم نود ان تكشف لنا عن

نفسها ولم نستطع نحن ان نكشف لانفسنا عنها . ولكن الانتاج العلمي مشاركة كله ، بل أخص صفاته انه تعاون بين المنتجين والمستهلكين كما يقول اصحاب الاقتصاد. فليصلح القراء ما فات الناشرين ومن يدري لعلهم ان يضطروا في كثير من الاحيان الى ان يصلحوا ما فات المؤلف نفسه . والمهم ان نعمل وان نسعى جهدنا الى الخير وعلى الله قصد السبيل »

ان هذا الكلام لا يقوله الا الاثبات الثقات من العلماء الذين كثرت معاناتهم لآثارنا وتصحيحها ، والذين استطال تجرهم وتدقيقهم . واني بعد لشاكر لكل من ساهم في هذا العمل المجيد أخلص الشكر ، مكبر لهم غاية الإكبار .

سعيد الافغاني

الآداب الاسلامية

تأليف السيد علي فكري في ٢٥٥ صفحة

طبع في مطبعة عيسى البابي بمصر سنة ١٩٣٧ م

كتاب لطيف الحجم حسن الطبع ضمنه مؤلفه الفاضل أهم ما يحتاج اليه المرء في دينه ودنياه من الآداب الصحيحة ، والاخلاق الفاضلة . وقد جعل الاستشهاد فيه مقصوراً على ما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة : فكان اول ابوابه ادب المرء مع الله تعالى ثم مع رسوله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور والوالدين والاقارب والجار والصاحب وسائر الناس : كيف يزورهم ، ويجالسهم ، ويحادثهم ويؤاكلهم : فهو يذكر الآيات والاحاديث الواردة في ادب من الآداب ثم يفسرها موجزاً تارة ومسهباً أخرى . ويعلق عليها من عنده احياناً تعليقاً فيه سهولة وفيه لين في التعبير بحيث يفهمه حتى عامة الناس . مثال ذلك تعليقه في موضوع الصدق قوله [فالتزم

ايها الإنسان نهج الصدق لتكون الصديق ذا المكانة العالية بين الناس ، والدرجة الرفيعة عند الله ، ولا تغشَ الكذب حتى لا تكون الفاجر الاثيم ، والكذاب المهين . واجعل صفحتك بيضاء نقية ، ومكانتك في المقربين علية ، ولقد صدق الشاعر في قوله :

واكرم الآداب صدق المنطق　　اكرمْ به اكرمْ به من خلق
اعدل شاهدٍ على الصلاح　　اقرب منهاجٍ الى الفلاح

ولم يستشهد المؤلف في كتابه الا بقليل من الشعر على نمط ما سمعت من هذين البيتين . ومن الشعر الذي استشهد به قصيدة ابتهالية في الحث على عبادة الله للشاعر اللبناني المشهور [الشيخ ناصيف اليازجي] وقد جاء في هذه القصيدة قول الشاعر [واطلب رضاه فانه لا يحقد) والقول ان الله تعالى لا يحقد على عبده المذنب تعبير مسيحي كان ينبغي للمؤلف ان ينبه اليه في ذيل الصفحة : لان وصف الله بالحقد ونفيه عنه لم يردا في الشرع الاسلامي كما لم يرد وصفه سبحانه بالحسد . بخلاف ما ورد مثل الغضب والانتقام مثلاً فان الله يوصف بهما ولكن لا يقاس عليهما غيرهما مما لم يرد .

وفي الكتاب اغلاط لغوية قليلة : من ذلك ما في ص ١٢ [دين الملة الحنفية السمحاء] وصوابه السمحة وفي ص ٤٥ [ان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم رجل يجب احترامه وتهذيبه وتوقيره] فقوله وتهذيبه صوابه ان يقال مكانه [وتعزيره] بالراء وبالزاي وكلاهما بمعنى التعظيم والتوقير ، وفي ص ٤٧ قوله [ومكالمتكم معه] صوابه ومكالمتكم اياه او له على ان التكليم هنا افصح من المكالمة وغير ذلك مما تحملنا قلته على شكر المؤلف الفاضل واكبار عنايته في ابراز هذا الأثر المفيد ، فنلفت انظار الآباء والمربين اليه .

المغربي

الحضارة الاسلامية

في القرن الرابع الهجري

تأليف آدم متز وتعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة طبع على نفقة بيت المغرب
الجزء الأول في ٤٥٦ الجزء الثاني والجزء الثالث في ٣٨١ صفحة
مطبعة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

كان مؤلف هذا الكتاب من أساتذة جامعة بال في سويسرا كتب كتابه بالالمانية ونشر بعد وفاته «١٩١٧» ثم نقل الى الانكليزية والاسبانية وتقدم احد مدرسي كلية الآداب بالقاهرة الاستاذ بوريدة ونقله الى العربية بلغة راقية راداً فيه نصوص المؤلف الى الاصول العربية التي اخذ عنها من الكتب العربية القديمة ومعتمداً على نحو اربعين تأليفاً عربياً حفظت في خزائن الكتب في باريز وليدن ولندن وبرلين وليبسيك ومونيخ وفينا مما لم يكتب له ان ينشر بالطبع ، وهو عمل شاق قام به الاستاذ الناقل احسن قيام .

وموضوع الكتاب من اجل الموضوعات المفيدة للباحثين من ابناء الشرق والغرب في هذه الحضارة الاسلامية العجيبة ، تناول المؤلف كل ما رآه مهماً في جلاء حقائقها فتكلم على المملكة وعلى الخلفاء والامراء وابناء الذمة من النصارى واليهود وعلى الشيعة ، وعرض للادارة والوزارة والوزراء والمسائل المالية ورسوم دار الخلافة والاشراف والرقيق والعلماء وعلوم الدين والمذاهب الفقهية والقضاة واللغة والادب . وافاض في الجزء الثاني في خدمة العرب لفن الجغرافيا وما حدث من التطورات في الدين والأخلاق والعادات ومستوى المعيشة واحوال المدن والاعياد والحاصلات والصناعات والملاحة النهرية والبحرية والمواصلات البرية .

كل ذلك بأسلوب الافرنج الراقي في التأليف ، يأتيك بالنصوص وقد سلكها في سلك بديع ، وما رأى ان يدخل شخصه ويبين رأيه الا عند الضرورة ، ولئن

كان المؤلف لم يواته الاجل لاعادة النظر في كتابه ونشر بعده قبل ان ينقحه ويزيد وينقص فيه، إنه من خير ما كتبه الغربيون في هذه الحضارة تشهد فيه مسحة جميلة من الانصاف ومعرفة ثاقبة في ايراد الحقائق من دون عصبية ولا عنجهية ، وهذا قلّ ان يشاهد فيمن يكتبون في غيرهم من امم الحضارة الحديثة · قلّ في الناس من ينصف غيره من نفسه ، ولذلك كان معظم من كتبوا فينا من اهل الغرب كانوا اما مفرطين في كيل المديح لنا كيلاً وإما مغرضين في محاسبتنا على النقير والقطمير بدون انصاف ولا قسط ؛ اما آدم متز فنمط جديد فهو الهدوء والكمال والخلق والعلم ·

ان هذا الكتاب من ابدع ما يقتنيه العربي ليقف على اقوال الباحثين في مدنية اجداده ، والشكر للمعهد الخليفي وللجنة التأليف على اختيارهما هذا الكتاب لنفع الناس · ومعظم الثناء يتوجه الى الاستاذ الناشر ولا يبعد ان يكون عانى من التعب في نقل هذا السفر البديع اكثر مما تعب المؤلف في جمع مواد كتابه ، أثابهم الله كلهم عن العلم

محمد كرد علي